تجليات الحب الحزين في شعر زياد طارق عبدالله العبيدي نماذج مختارة

أ. م.د. إيناس عبدالرحمن زايد
جامعة بغداد/ كلية العلوم الإسلامية

المستخلص:

جُبل الإنسان نحو العشق والهوى مُنذ لحظاته الأولى، فقد لامس الحب مشاعره الدافقة وعواطفه العميقة والتي صُبت في قوالب من كلمات أو عبارات أو إشارات أو همسات، وقد تتحول عند البعض إلى روايات أو قصائد تحمل في طياتها مكنونات الحب المحاطة بلذة العشق وألم الحرمان، فالحبيبة قريبة وبعيدة في آنٍ واحد، تُحيي وتُميت باسم الحب، فما أشبهه بالداء والدواء.

ويعد الشاعر زياد العبيدي(*). رمزاً من رموز الحب الحزين، إذ نقش بريشته لوحات تضمنت مشاعر الحزن والفراق، أطلقها نحو المتلقي فلامست الروح والمشاعر، تلك المشاعر التي أضعناها في طرقات حياتنا الصاخبة. يهدف البحث إلى الكشف عن مكنونات الحب الحزين الذي تخلل قصائده(*)، والوقوف على جمالياتها ودلالاتها من خلال قراءة لنماذج مختارة من قصائده الشعرية المحملة بمشاعر الحب وأحزانه، وتحليل ما بدا فيها من إبداع صوري أو خيالي أو بلاغي أو تعبيري، وبُني البحث بعد الملخص على هيكلية شكلت منظومته فضلاً عن الخاتمة التي سجلتُ فيها أهم النتائج التي توصلتُ إليها.

الكلمات المفتاحية: الحب، الحزن، زياد، شعر، عبيدي، نماذج.

Abstract:

Humans are naturally inclined toward love and passion from their earliest moments. Love touches their deepest emotions and feelings, which are channeled into words, phrases, gestures, or whispers. For some, these feelings may transform into novels or poems, carrying within them the hidden treasures of love, enveloped by the pleasure of passion and the pain of deprivation. The beloved is both near and far, giving life and death in the name of love. It is like both disease and cure.

The poet Ziad Al-Obaidi (*) is considered a symbol of sad love, as he engraved with his brush paintings that encompassed feelings of sadness and separation, unleashing them on the recipient, touching the soul and emotions—the feelings we have lost in the tumultuous paths of our lives. This research aims to uncover the hidden meanings of sad love that permeate his poems (*) and to examine their aesthetics.

And its connotations are explored through a reading of selected examples of his poems laden with feelings of love and sorrow, and an analysis of the creative visual, imaginative, rhetorical, and expressive elements found therein. Following the summary, the research is built on a structure that forms his system, as well as a conclusion in which I record the most important findings I have reached.

Keywords: love, sadness, Ziad, poetry, Obaidi, examples.

مدخل(*):

الشاعر زياد طارق عبد الله العبيدي، تولد كركوك، يعمل رئيس اتحاد الصحفيين العراقيين فرع كركوك.

صدرت له مجموعات شعرية منها ما هو منفرد ومنها ما هو مشترك:

ثلوج دافئة: منفرد.

نصوص وكتابات: مشترك.

دموع يخفيها المطر: مشترك.

حصل على المركز الأول في مسابقة الشعر الحر في لندن.

حصل على المركز الثالث في مسابقة شاعر اليوتيوب في مصر.

حصل على الدرع الذهبي في مسابقة الجبالي عام ٢٠١٥.

وقد حظيت مجموعته الشعرية بالدراسة والتحليل من قبل النقاد والأدباء ومنها:

دراسة نقدية وتحليلية لقصيدة (سيدة الذهول) بقلم الأستاذ علي محمد.

الغزل في المجموعة الشعرية (دموع يخفيها المطر) للأستاذ عبد الحميد آل كلوت.

النص الشعري:

لم يمثل الخروج عن القاعدة الشعرية التقليدية هاجساً للشعراء المولدين فقط أمثال: أبي نواس، وأبي العتاهية، وبشار بن برد .... وغيرهم، بل امتد إلى شعراء العصر الحديث، إذ بات يؤرقهم شكل القصيدة القديمة؛ لأنها استنفدت كل ما لديها ولم تعد تملك ما تقدمه من جديد للشعراء، إذ شكلت بمثابة القيود التي تشدهم إلى الخلف، وتشل حركتهم نحو الإبداع فما كان لهم إلاّ صرخة أو تمرداً جريئاً كجرأة من سبقوهم، فدعوا إلى الخروج عن الشكل الكلاسيكي للقصيدة إلى شكلٍ جديدٍ يواكب تطورهم الحضاري والفكري محققين فيها غاياتهم في التجديد والابتكار والتخلص من أي فكرة تشير إلى القيود، فكان لهم الشعر الحر أو شعر التفعيلة، وظهر ذلك جلياً عند الشعراء الرواد وعمالقة الأدب الحديث أمثال: نازك الملائكة، وبدر شاكر السياب، وصلاح عبد الصبور، ومحمود درويش .... وغيرهم.

وقد ساد على غالب شعرهم الحزن المتوشح بعبارات الشوق والشكوى والألم والفراق والغربة والموت ..... وغير ذلك من المعاني البعيدة كل البعد عن مشاعر الحب والرومانسية، إذ تملَّك الحزن على أشعارهم، وانتشر بين مضامين قصائدهم وأضحى جزءاً لا يتجزأ من لوحاتهم الشعرية وسمة من سماتهم الفكرية والثقافية. وكأن الحزن أصبح كأساً يتجرعه كل من نالته رياح عصر النهضة.

وعلى ما يبدو أن من أسباب الحزن ذلك الإحساس العميق بالذات المقيدة التي تطالب بالتحرر، والبعض يرى أن سببه يعود إلى التأثر العربي بالنزعة الحزينة من أحزان الشاعر الأوروبي الذي عاش طغيان الحضارة المادية خاصة في نموذج الشاعر ت. س. اليوت(١).

ان كل تمردٍ يبدأ غريباً مستغرباً، ثم يتحول إلى حركة فكرية تؤمن بها جميع الأطراف على اختلاف مذاهبهم الثقافية والفكرية وحتى الدينية، وأن الخروج من المنظومة الشعرية التقليدية هو خروج له بواعثه وأهدافه مع التأكيد على الهوية الفردية في الاختيار، فقد اتخذ كلٌّ منهم حيزَه الخاص في الحزن وأسلوبه المميز في التشاؤم والكيفية في تجسيده ومواجهته.

وفي قراءتنا لأعمال الشاعر العراقي زياد العبيدي لمسنا حبه للمرأة، هذا الحب هو عوض الله العظيم الذي به تروى القلوب وبه ترمم الروح وبه تجبر الخواطر، فهو اللمحة التي تستضيء بها بواطن النفوس، فتتحرك لإشراقتها طبائع الحياة ليصور من ذلك خلق حاضر للنفس متصل بخواطرها(٢).

وأن الحب هو جبر الخواطر، وشفاء الأرواح، ومداواة المشاعر... هو لهفة اللقاء ولذة العشق ... هو بهجة الفرح ومرارة الحزن.

يقول ابن القيم في مقدمة كتابه (روضة المحبين): "الحمدُ لله الذي جعل المحبة إلى الظفر بالمحبوب سبيلاً، ونصب طاعته والخضوع له على صدق المحبة دليلاً، وحرك بها النفوس إلى أنواع الكمالات إيثاراً لصلبها ... فجعل كل محبوبٍ لِمُحِبّه نصيباً مُخطئاً كان في محبته أو مُصيباً، وجعله بحبهِ مُنعَّماً أو قتيلاً"(٣).

وجاء في طوق الحمامة لابن حزم أن الحب هو (اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة ....)(٤)، وله عدة علامات وهي:

إدمان النظر، الإقبال بالحديث، الدنو من الحبيب، والاضطراب عند رؤيته أو سماعه، الجود في البذل والشجاعة، فكم من بخيل جاد، وكم من جبان شجع، وهي علامات تسبق استعار نار الحب، وتأجُّج حريقه، وتوقُّد شعله واستطارة لهبه(٥).

مقتطفات من الحب الحزين للشاعر زياد العبيدي:

إن ثنائية الحب والحزن ملأت عيون الأدب وأمهات الكتب العالمية والعربية، فقد شهدت الأساطير والروايات والقصائد على تجارب الحب المختلفة، وخلدت حبهم الحزين ليكون سِفراً عبر الثقافات المتعددة، ومنها إلى سبيل المثال لا الحصر في الأدبين العالمي والعربي: رواية (روميو وجوليت) للكاتب الإنكليزي وليم شكسبير، ورواية (أوجين أونيفين) للشاعر ألروسي ألكسندر بوشكين، ومن الأدبيات الكلاسيكية الإنكليزية (مرتفعات وذرينغ) للروائية إميلي برونتي ومن روايات العشق الجامح (مدام بوفاري) للكاتب الفرنسي غوستاف فلوبير، ومجموعة روايات عبير التي اجتاحت العالم العربي بنجاح وكان لها صدى واسع للقراء، وكانت الباحثة نموذجاً في ذلك الصدى الذي أخذ أنفاسنا وآسر أرواحنا.

أمّا على الصعيد العربي القديم فقد امتلأ التراث بقصص العشق الثنائية، التي كان الشعر نديمها والعاشق مجنونها بين قيس وليلى، وعنتر وعبلة، وجميل بثينة، وكُثير عزة، وابن زيدون وولادة بنت المستكفي ... وغيرهم.

أمّا حديثاً فكان الشجن محور الروايات والأساطير ومنها على سبيل المثال لا الحصر (في بيتنا رجل) و(الوسادة الخالية) للكاتب المصري إحسان عبد القدوس والتي حملت كماً هائلاً من مواجع الحب وأحزانه.

ولا يمكن أن ننهي الحديث قبل أن نشير إلى أهم أسطورة في الأدب الكردي وهي أسطورة (مم وزين) للشاعر الكوردي (أحمد الخاني) والتي حملت في داخلها قصة العشق الحزينة بين (مم وزين) والتي ترمز إلى التسامح الطبقي بين الأطراف.

في الشعر الحديث الحزن استفاض نغمه، وبالكاد نرى شاعراً خالف القاعدة، وقد تعددت الأسباب في ذلك ومنها الحب والمرأة، فالمرأة بالنسبة للرجل هي مصدر اللذة والألم، فضلاً عن كونها إلهاماً تلهم الشاعر بمشاعر متعددة متضاربة ينتج عنها نتاج شعري يداعب به الخيال والعاطفة والوجدان دون الانشغال بتطبيق قواعد اللغة والنحو.

والشاعر زياد العبيدي قد أعطى مكانة ومساحة كبيرة للمرأة، إذ توغَلَ إلى عالمها الغامض، وضاع في متاهاتها النفسية، وتأرجح بين مشاعرها المتشابكة، ووقف كثيراً يتجرع مرارة الألم، وهي تنهل حلاوة اللذة، فقد تنازل الشاعر عن مركزِه وأهداه لحبيبته التي تلذذت بحبه وهجره، فيذكرها متألما لرحيلها، ومتأملاً في لقائها، إذ يقول:

الحروف ما عادت تسعفني
أضعت في الترحال أقلامي
وقصائدي

ومن كنت أظنها لي
أضعت أشيائي
وذكرياتي
ومضيت أفتش عن هدوئي
في كومة صخبي
لعلي أجد ما يسعفني
من حروف لا تعاندني
أرسمها كيف يحلو لي
تضحك لضحكاتي
وتبكي لدموعي
لا تساومني
ولا تحاصرني
ربما لن أجدها تصغي
حين أحتاج أن تصغي
فتثرثر أمامي
كي تفقدني صوابي
أتعبتني
وأتعبت نفسي
ومللت حتى من صبري

انسكب الحزن داخل الشاعر؛ لأن حروفه لم تعد تنساق لأوامر قلبه المعذب فأضحت نفسيته متمزقة وغير مستقرة، مما دعته لرؤية الأشياء ومتناقضاتها، فتحرك النص وفقاً للثنايات الضدية (هدوء وصخب، ضحك وبكاء، تثرثر وتصغي أطلق بها جدليات حياته المتضاربة من الربح والخسارة. وشمل النص معاني الحزن المتعددة، والتي تواشجت فيما بينها، لتكون دلالات مشبعة بالشجن والألم التي أفقدته عقله، وأضاعته في متاهات حبها المتصحر، الذي هو سراب يحسبه الضمآن ماء.

لاحظت الباحثة أن نصوص الشاعر زياد حملت لوحات من المد والجزر بينه وبين معشوقته الهاربة، بعد أن ظفرت بحبه وتوهجت بعشقه، ثم تركته حُطاماً لم ينل منها إلاّ سهام الوجع المملوءة بالأحزان متمسكاً بالحقيقة البائنة وهي أن لا شيء في الحب إلا الألم المؤلم الذي يولد الآلام المريرة، إذ يقول:

اعتذر منكِ
ربما مساحة الحزن لا تكفي
كي أشرح لكِ لوعتي
الأيام صارت تعاندني
تحملني إلى فضاء آخر
تحاصرني
تشدني وثاقها
..... وأنا ما زلتُ أتنفس أحزاني

إن الشاعر يقدم نبضات عشق ليحرك ما لا يزال ساكناً، فنراه يوظف لفظة الاعتذار بمثابة الندم والبراءة من الحب.

ولأنه شاعرٌ عُرِف برقة همسه، لم نجد في قاموسه الوعد والوعيد، بل كان اعتذار همس عاشق حزين الذي شارف على انعدام ذاته وخسارتها؛ لأنه أحب من أحزنها – ذاته– وأدخل الشكوى واللوعة فيها، فغدا الحب آسراً لروحه وخانقاً لأنفاسه.

إن المبدع هو الذي يتميز عن سائر غيره من التكوين النفسي، وكيفية التعامل معه، فتكون له القدرة على التمييز بين الألفاظ المطروحة في الطريق واختيار الأفضل منها لتحقق بريقاً ساحراً، تولج المتلقي في عالمه الحزين، لأنه ينطق بما لا ينطق به الرجل العادي، يقول:

ما بين حلم وحلم
يستيقظ الوهم
أبحث عنها في دمي
وفي تفاصيل لهفتي
أفكر في عباراتها
وكيف عنها تمنعني
أدنو من شفتيها
أشم عطرها
أتنفس أنفاسها
أخبرها أني أحبها
لكنها تبعدني
تقتلني
تبني ألف سور بيني وبينها
ما زلت أتلمس الطريق لقلبها
يذلني صمتها
وأحياناً لا أعنيها
منحتها كل هواجسي
كل عذاباتي
أتلمس الدرب لها
لا أعرف كيف تفعل ما تفعل
وكيف بإمكانها قتلي
حتى أقول لها
أني أحبك أنت

للحظة نعتقد أن الشاعر قد ثابَ إلى رشده وشعر بسوء اختياره عند قوله: (ما بين حلم وحلم يستيقظ الوهم)، غير أن ألفاظه جاوزت أهدافه، فعكست نصوصه مشاعره المتذبذبة بين الفراق والاشتياق، فهو لا يتوانى من إمساك جمر الغضى على أمل يرجوه من حبها أو لقاء يدنوه بقربها. ولأن المنال صعب في إدراكه، فما كان له إلا شقاوة الحب وحزنه الممزوج باليأس، إذ شهد النص حالة متناقضة ومتنافرة بين صورتين صورة الشاعر المتلهفة

لِلقائها المنتظر وصورة الحبيبة التي تبني أسواراً من البعد والفراق.

إن فاعلية الزمان والمكان خلت من حبيبته التي قتلته بهجرها، فأذابت روحه وتركته جسداً خاوياً متألماً مستسلماً للقتل والموت، ومتأسفاً على قلبه الموجوع وقلبها القاسي.

إن عقدة الإهمال والقصور العاطفي أوجدت من الأحلام أرضاً، ومن الخيال واقعاً، وأن هذا التزاوج قد ينجب نصوصاً خالية من الأقدار وفاقدة للإلهام والحضور؛ لأن (انفصال الشاعر عن واقعه وإسفافه بالخيال أو العكس لهو أحد العوامل التي ساهمت في تراجع شعبية الشعر ونزوله عن عرش الأدب العربي لتصعد الرواية)(٦).

ولكن لا بأس بقليل من الأحلام لكي لا تختنق الروح يقول الشاعر:

ما الذي بيني وبينك
هل هي صداقة
أم عشق روح
أم أنتِ صُدفة في حياتي
ترسخت بداخلي
أم أنكِ طيفاً كان يراودني
في جميع أوقاتي
لم أكن أنويكِ حباً
فقد وقعت في حبك سهواً
فكيف أعدل الميزان
وأنتِ
قد ملأتِ الكفتين عِشقاً
ويقول:
مددت يدي أتلمس خيال أوهامي
وأنتِ تمدين خطى اللقاء هنا
كيف طوقتني بلوعتي
وحملتي ذكرياتي ورحلتي
ماذا ستخبرين الليل عني
حين يهبط القمر قرب نافذتك
وماذا ستقولين للأزهار
حين تحاول لمس شفتيك بأوراقها
وماذا ستخبرين جبينك
حين يشتاق لأناملي
وهي تغازله بصمت
حدثيني أيتها المتكبرة
كيف اخترتِ الرحيل بدوني
ارتمت حروفي مذبوحة
تنتظر دفنها في مقبرة الذكريات

هانت عليك الأزهار والأقمار
وبعتي الإحساس ببخس الأثمان

لقد افرغ الشاعر مشاعرهُ الحبيسة، فرسم بلغته الشعرية تلك الأحاسيس التي يتوجع منها، فغدت لوحته مليئة بالأبعاد النفسية المحملة بمشاعر الحزن واللوعة والشوق، لافتاً أنظارنا إلى حالة الوهن التي تحيط به، وكأنما الشاعر يتغذى على الأحزان؛ فهو لا ينفك يطلبه مراراً وتكراراً، فالإنسان في أعمق أعماقه يرغب فيما يرهبه ويرهب ما يرغب به(٧)، فنفسيته متخبطة ما بين إرضاء نفسه بحبها المنتظر وما بين إرضاء المحبوبة بحبه القمري، ولكن هيهات فلا حياة لمن تنادي فهي تهجر ولا تبالي.

ولا ينفك العاشق زياد مستتراً خلف ألفاظه الناعمة، وهو ينظر إلى طيف محبوبته فليس له منها إلاّ الذكريات التي طوقته باللوعة، وزادت ليلهُ وحشة، فيعاتبها عتاب المحبين عن سبب الجفوة، مُذكراً إياها بالحب الذي جمع بينهما.

وعلى الرغم من كمية الحب والاسترضاء تجاه المحبوبة، غير أنه لم يسلك مسار البكائين، ولم يتنازل عن عرشه الرجولي، ولم يفقد كبريائه، إذ رَسَم ملامح رجولته مفتخراً بسمات تفرده في كل ما تتمناه الأنثى من الرجل.

لاحظت الباحثة أن الحب الضائع بات ملازماً للشاعر في أغلب قصائده، وترى أن الشاعر قد تعرض لانكسارات متعددة فهو لا يكاد يرأب صدع انكسارٍ، حتى يلوحه في الأفق انكساراً آخراً، فيعاتب الاخلاص فيها يقول:

ما بيني وبينك عتاب
في زمن الحب يا قمري
أصبح الأحباب أغراب
ومضى الإخلاص إلى لا عودة
ويطول الشرح والأسباب
ما بيني وبينك يا قمري
مررت بالكثير من الصعاب
جرح وغدر وخيانة
وتعب وهرولة خلف سراب
... لا تحزن يا قمري
رغم أنك بعيد أشعر بالاقتراب
دنت ساعتي مني
ورميت بجسدي وسط الضباب
أنا على شرفات الموت حزناً أجلس
وبعد لحظة في التراب

لم ينهكنا الشاعر وهو يعاتب حبيبته بصور بلاغية معقدة من استعارات مزيفة أو تشبيهات متداخلة وإنما استعمل ألفاظاً واضحة وصريحة غزيرة المعنى (جرح، غدر، خيانة، أغراب) لتتكشف للمتلقي ما آلت إليه نفسه الحزينة وهو يشاهد من يُحب تستفيء بظلالٍ أخرى وهو يلفه الحزن والوحشة.

وقد وظف العتاب ممزوجاً بطيب القول ولينه، ووميض العشق ورقته، حتى يكاد المتلقي يستشف انسحاب الذات أمام سلطان المرأة التي يذوب فيها عشقاً والذي يصل به إلى الجنون؛ وذلك لأن الشاعر هو شاعر

عذري لم يخاطب الانثى بمقاييس الارداف والنهود، وإنما أنثى الإحساس والعاطفة والروح، لذا فمصير العذريين دوماً إما الحياة جنوناً أو الموت عشقاً. وهنا نرفع القبعه للشاعر زياد لهمسه العذري المتباعد عن لمسه الحسي، الذي لم يحول عشقه من الشوق الجميل الى عشق سرير محروم(٨).

إن الإنسان يتجاذبه تيارين أحدهما يؤكد ذاته والآخر يضعفُها(٩)، فتقع (الأنا) أمام مفارقات نفسية وسلبية تصيبها بالإحباط وتحيطها بالقهر وتفقدها القدرة على التمييز(١٠).

وفي خضم المعاناة النفسية التي يتعرضها الشاعر أمام قوتي حب الأنا وحب الآخر يُعلن اعتزاله للحب، ويكسر أفق التوقع، فتعود (الأنا) إلى مركزها المتعالي، ويعود للقلب صحوته، فالقلوب لا تصحو إلا بالألم، يقول:

لا أتوقع أن تجدي رجل
يستطيع أن يحتوي لهفتك
ويغازل صمتك
ويغزل من شعرك ألف قصيدة
لن تجدي رجلاً مثلي ..
يستطيع أن يقول ما فعلته لك
فلا تتوسلي أن أعود
فأنا مثل الموت والولادة
لا تحدث
إلاّ مرة واحدة

تظهر قوة الشاعر وتمكنه الانفعالي في توظيف الأفعال المضارعة: (تجدي، تتوسلي، يحتوي، يحدث)، والتي تترجم ديمومة الحال من الهجر والفراق.

فضلاً عن ثنائية الموت والولادة التي شكلت نسيجاً لغوياً وجدلياً في مكنونات الشاعر النفسية والعاطفية فالاتجاهين متضادي المسار، إلاّ إنهما يلتقيان في قدر واحد معلوم ومحتوم وهو الوجود والفناء الواحد.

وقد بدا للباحثة ثقافة الشاعر وتمكنه اللغوي، وذلك باستبداله الحياة بالولادة، هذه الرمزية التي تجرنا إلى عالم مظلم يشير إلى إننا ولدنا لنموت.

وبما أن الأسلوب هو الرجل، فأسلوب الرجل زياد يكمن في لغته الشعرية، وطريقة اختياره لمفردات ألفاظه، فقد وقف الشاعر على تلك الإمكانيات وانتقى منها الأفضل، وسخرها لإنجاز المعنى الذي يسعى إليه، يقول:

قرار
قررت الطيور أن تهاجر
تركت أعشاشها والحنين
وبحيرات الحب الصافية
استجابة لنداء الشتاء
وتساقطت الأوراق.
زرعت لها سنابل قمح
قبل الحصاد اشتاقت للرحيل
رفرفت بأجنحة الغدر

وارتفعت بسماء غرورها
لا قدر يرجعها
مثلما الأقدار حملتها
لن أبكي رحيلها
ولا خسارتها
غداً يتعبها السفر
وتعود تبكي ندمها

ترتفع نبرة الأنا بقوة، وتتخذ قرارها بحزم لهدم كل علامات الإرضاء، فبدت الحبيبة ثيمة مُحملة بخصال الغدر والخيانة والهجر وقطع الوصال. وقد تشخصت (الأنا) في الأفعال الماضية (قررتْ، تركتْ، تساقطَ، زرعتْ، رفرفتْ، ارتفعتْ، حملتها، اشتاقتْ). فعلاً ودلالة لصناعة قرار الهجرة والرحيل وعدم الرضوخ لرغبات القلب والروح، وتتوشح الأنا بلباس الغرور والنرجسية المتعالية في تهميش الآخر عن طريق الخسارة والندم والبكاء.

لقد حمل الشاعر بأفعاله متخيلات رمزية وصورية، ووضعنا فيها أمام الحدث الذاتي، إذ شهدت نصوصه نثراً من الدلالات الرمزية والصورية، فالشاعر يميل إلى الرمز الشعري وإسقاطاته المجازية والتشبيهية والاستعارية، ويلتقط أفضلها، لعقد مقارنة بين الأوصاف، ويخلق فضاءاً واسعاً من الخيال، مثل: نداء الشتاء، أجنحة الغدر، الأقدار حملتها.

فضلاً عن رمز الطير الذي كان ذات الشاعر والذي أسقط فيه لواعج حبه الحزين، منتقلاً به من المعنى الصريح إلى التلميح والإشارة. فقد عجز لسانه عن النطق فتوارى وراء الطير وباحَ عن رحيل بدا في خاطره.

إن الحب هو الاكتمال عند رؤية المحب والنقص عند غيابه، ولكن إن تساوى الحضور بالغياب، كان الفراق هو الدرس الذي يعلمنا قيمة ما نملك، يقول:

لست مشاع
ولا لقبيلة نساء
أنا اتخذت طريقي
ولست عبداً لهولاء
لا تملك تفاصيلي امرأة
ولا تحاصرني السماء
فضاء أنا لوحدي
لا أملك دفاتر وأسماء
لست مشاع
ومن تقول أنها تملكني
تحلم بكل اشتهاء
لست مشاع
ولا أباع في سوق النساء
أنا حسام إذا ضرب الارض
شقت وسالت دماء

عندما يمتلك الآخر القدرة على تحطيم الأنا وتهميشه، يسلك الإنسان سلوكاً لا شعورياً يضيء بالقرب من

الجانب الواعي فتتحرك الذات لكبح الرغبات وحماية الأنا(١١)، فتستيقظ الأنا من سباتها لتعلن الرحيل، فعندما يحين وقت الرحيل فلا عودة ولا تراجع، وها هي الأنا المتعالية للشاعر زياد تقلب الطاولة وتفك قيودها لإنهاء معاناة الهوى، فالهوى بلا أمل يحطم الروح ويتلف الجسد، ويكسر الذات، فالحب إن لم يُضئ العمر نوراً والقلب إشراقاً، فالخلاص منه أسلم.

سَخَّر الشاعر طاقته الإبداعية في هندسته الشعرية، ونقل عمق مشاعره الحزينة وأحاسيسه القلبية إلى المتلقي وهو يبدأ بـ (لست مشاع) التي كررها لأكثر من مرة مؤكداً فيها قراره الصائب؛ فالبعد مزقهُ، والفراق قتلهُ، لذا اتخذ مساره في الابتعاد، فهو المتحكم بقلبه الذي طالما كان يدعوه لحبها ويأمله للقائها، فالتكرار يثري النص قيمة فنية إبداعية، وبواعث شعرية؛ لأنه من محاسن الفصاحة وأبلغها فالكلام إذا تكرر تقرر(١٢)، والشاعر يقرر ويؤكد بالفعل الماضي (لست) الذي يحمل معه ذكريات الماضي مشبعاً بالأحزان، ومتأسفاً على قلبه الذي لامس الوجع.

وقد تراءت للباحثة ثقافة الشاعر في جرس الكلمة، إذ تتميز ببراءته في حسن استخدام ثقافته الصوتية وتوظيفها في أحسن حال، وذلك لما للصوت من أثر ودلالة في تغيير مسار المعنى إيجاباً أو سلباً(١٣).

إذ أفصح الشاعر عن حالته النفسية الثائرة عبر حروف الاطباق التي تحمل أهم صفتي القوة وهما: الاستعلاء والتفخيم (الطاء، الضاد ثم الصاد والظاء)(١٤)، التي منحته القدرة على تصوير نفسيته الثائرة، وعواطفه الجياشة فأعطت بذلك قوة في الدلالة وعمق في المعاناة مع استمرار الألم الذي دعاه إلى رفض هذا الحب وبقوة.

وقبل أن نختم الحديث لابد أن نلفت الأنظار إلى رائعة من روائع الشاعر زياد في حبه للوطن، لأي أرض وطنية بلا تحيز أو تعصب أرسلها إلى الحبيبة – دمشق–، وقد مزج فيها بين ملامح حبه للمرأة وبين حبه للوطن.

وقد نالت هذه الثنائية، حضوراً لافتاً عند شعراء الأدب الحديث، إذ اتخذوا من المرأة فضاءً عاماً ارتبط بالوطن دون النظر إلى ملامحها الجسدية، فلم تكن المرأة شاخصة بأنوثتها وإنما هي روح الوطن ومثاله المتكامل.

غير أن أنظار البعض منهم كانت متجهة نحو هذا الجسد ومرتكزاته مثل: مظفر النواب ونزار قباني(*) وغيرهما، إذ كانت لها ثيمة قاسية من التوظيف الجنسي بين جسد المرأة وبين أرض الوطن، وما هي الآ ثيمة مشوهة الاستعمال وخارجة عن الوظيفة الفنية، وخالية من الخيال الصوري والجمال الأسلوبي، فخرج من كونه وطن واختفى أمام الجسد(١٥).

أما الشاعر زياد فكانت نظرته للحب الثنائي – المرأة والوطن– مختلفة، مما دعانا الأمر أن نرفع له قبعة التحية والاحترام للمرة الثانية، فقد سما بمعاني ألفاظه ومنحها بعداً روحياً سامياً مليئاً بالجمال يقول:

قرأت عينيك حتى لاحت لي دمشق
على عرش الياسمين .. كتبت اسمك
قلبي دمشقي النكهة
وعيناك وطني
ووطني قصيدتي الغنّاء ..
والشعر دونكما يحتضر
تشابه الحب بينكما في قلبي
كلاكما لحن على تاج أوردتي
على أنغامه يطيب الرقص والطرب
ويشدوا الحمام ..
ويحلو السهر والغزل

لك يا وطني ولعينيك أغنّي
في صدركما ألقي همي
وطني الحياة وواحة الشوق
وأنت قبلة الله في عيني
وروحي التي تسكنني
كم تشبهك هذه الأرض
هي مثلك أنجبتني وأحيتني

صَهَر الشاعر في نصه أشكالاً دلالية في حبه الحزين بين دلالتي المرأة والوطن، فخاطب دمشق بقناع المرأة التي لم تعد شاخصة بأنوثتها، وإنما هي المكان الذي تحقق فيه الوجود، فكلاهما رمز الحب، ولذة العشق، ودفء الاستقرار، ومثال الخصوبة والحياة، فالإنسان يخرج من أحضان أمه إلى أحضان وطنه.

لقد كان إحساس الشاعر متوازناً، إذ مزج بين ملامح حبه للمرأة وحبه للوطن فأدرجهما بحوارٍ واحد، فذابت التفاصيل بينهما وكأنهما حقيقة واحدة فهو لا يتوارع من مخاطبة الأرض كما يخاطب المحبوبة فهما عنده سيان.

استطاع الشاعر أن يتخير أجمل ما في اللغة وينسجها في تراكيب شعرية بملامح أسلوبية خلاّبة، خالية من التشوهات، مليئة بالإبداع، ليرفع بها مقام الوطن، ويبث فيه الحياة، فتحقق بكل بساطة وسهولة عمق الدلالة المرجوة. وهذا هو الإبداع الذي استصعبه البعض.

الخاتمة:

إن المرأة في شعر (زياد طارق العبيدي) هي المحرك الأساس لمشاعره وأحاسيسه، فسيدي الشاعر قد امتلك الموهبة في إثراء النصوص الشعرية وبشكل أنيق وبالطابع الرومانسي المليء بمعاني الحب والفراق والشجن.

أجادَ الشاعر بأسلوب سلس خالٍ من التعقيد أن ينقل صورة حبيبته الجميلة بكل جوانبها الأنثوية والروحية، والبعيدة كل البعد عن مرتكزات جسدها الجارح، وأن يخاطبها خطاباً عذرياً متخيراً فيه أجود الألفاظ ومعانيها، فخرجت من الشاعر إلى الملتقى بأبهى حلة خالية من الركة والتشوه.

ثنائية (المرأة والوطن) التي جمعها الشاعر في نصه الشعري، ابتعد فيها عن الجوارح، وجعل من المرأة صورة فنية معادلة للأرض، فهما رمز الفرح والحزن والدفء والهوية على سواء.

موهبة الشاعر في توظيف الخيال والقدرة على نسج الصورة التي تموج بالحركة والحياة بلغة فنية خيالية ساحرة إلى جانب قوة تصوير العاطفة الحزينة.

الوسطية والاعتدال في استخدامه للصور البيانية فلم يُسْهب فيشوه، ولم يوجز فيُقصر.

الهوامش:

(*) الشاعر: زياد طارق عبد الله العبيدي، شاعر عراقي من كركوك.

(*) نقلت القصائد بخط اليد من مواقع التواصل المتعددة.

(*) تم الحصول على هذه المعلومات من الشاعر.

(١) مظاهر الحزن في الشعر العربي المعاصر الشعراء الرواد أنموذجاً، جدي فاطمة الزهراء، مجلة النصّ، الجزائر، المجلد ٩، العدد ٢، ٢٠٢٢، ص ١٣٩.

(٢) ينظر: الحب عند العرب، أحمد تيمور باشا، دار المعارك، تونس، ١٩٩٣، ص١٣.

(٣) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، الإمام ابن القيم الجوزية (٦٩١–٧٥١هـ)، تحقيق: محمد فريد شمس، تدقيق العلامة الشيخ بكر بن عبد الله بو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، جدة، (د. ط)، (د. ت)، ص٥.

(٤) طوق الحمامة في الألفة والأُلّاف، علي بن الحزم الأندلسي، مؤسسة هنداوي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠١٦،

ص١٢.

(٥) ينظر: م. ن، ص ١٧–١٨.

(٦) الخيال والواقع في الشعر، حذيفة العرجي، مقال منشور في مدونات ٢٠١٧. Aljazeera.net

(٧) الآليات الدفاعية وعلاقتها بقوة الأنا، شوقي يوسف، مطبعة مؤسسة الثقافة، بغداد، الطبعة الثانية، ٢٠٠٤، ص٢٧٤.

(٨) العشق دون اللمس، إعجاز العذريين الصعب، للكاتب ملهم علي غالب، مقال منشور في مكتبه ملهم الملائكة، https://mlhm.١.com

(٩) ينظر: الإنسان والهوية والنفسية، د. عيدان أبو حامد، دار البراق، الجزائر، الطبعة الأولى، ٢٠١٠، ص٨٩.

(١٠) ينظر: دراسات نفسية، سميع السيد، دار البراق، الجزائر، الطبعة الأولى، ٢٠١٠، ص٣٩٤.

(١١) ينظر: الأنا والهو، سيغموند فرويد، ترجمة: محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، عمان، الطبعة الرابعة، ص١٧.

(١٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، د. ط، د. ت، ح١/ص٣٤١.

(١٣) ينظر: البنيات الأسلوبية في لغة الشعر الحديث، مصطفى السعدي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٧، ص٢٢.

(١٤) كتاب الروضة الندية، شرح متن الجزرية، العلامة أبو الخير محمد بن محمد الجزري (٧٠١–٨٣٣هـ)، شرح محمود محمد عبد المنعم العبد، تصحيح: السادات السيد منصور أحمد، مكتبة الأزهرية للتراث، الطبعة الأولى، ٢٠٠١، ص٥٦.

(*) امتنعت الباحثة عن ذكر أبيات الشاعرين لقساوة الألفاظ ومعانيها، فمن أراد الاطلاع عليها الرجوع إلى قصيدة (القدس عروس عروبتي) للشاعر مظفر النواب، وقصيدة (جريمة شرف) للشاعر نزار قباني.

(١٥) ينظر: (المرأة والوطن) والاستعارات المناقضة لشعر الحداثة، مقال منشور في شبكة تلفزيون سوريا، ٢٠٢٢. https:// www.syria.comTV.

المصادر والمراجع:

١. الآليات الدفاعية وعلاقتها بقوة الأنا، شوقي يوسف، مطبعة مؤسسة الثقافة، بغداد، الطبعة الثانية، ٢٠٠٤.

٢. الأنا والهو، سيغموند فرويد، ترجمة: محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، عمان، الطبعة الرابعة، (د. ت).

٣. الإنسان والهوية والنفسية، د. عيدان أبو حامد، دار البراق، الجزائر، الطبعة الأولى، ٢٠١٠.

٤. البنيات الأسلوبية في لغة الشعر الحديث، مصطفى السعدي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٧.

٥. الحب عند العرب، أحمد تيمور باشا، دار المعارك، تونس، (د. ط)، ١٩٩٣.

٦. العشق دون اللمس، إعجاز العذريين الصعب، للكاتب ملهم علي غالب، مقال منشور في مكتبه ملهم الملائكة، https:// mlhm.1.com

٧. كتاب الروضة الندية، شرح متن الجزرية، العلامة أبو الخير محمد بن محمد الجزري (٧٠١–٨٣٣هـ)، شرح محمود محمد عبد المنعم العبد، تصحيح: السادات السيد منصور أحمد، مكتبة الأزهرية للتراث، الطبعة الأولى، ٢٠٠١.

٨. (المرأة والوطن) والاستعارات المناقضة لشعر الحداثة، مقال منشور في شبكة تلفزيون سوريا، ٢٠٢٢. https://www. syria.comTV.

٩. معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، (د. ط)، (د. ت).

١٠. الخيال والواقع في الشعر، حذيفة العرجي، مقال منشور في مدونات ٢٠١٧. Aljazeera.net

١١. دراسات نفسية، سميع السيد، دار البراق، الجزائر، الطبعة الأولى، ٢٠١٠.

١٢. روضة المحبين ونزهة المشتاقين، الإمام ابن القيم الجوزية (٦٩١–٧٥١هـ)، تحقيق: محمد فريد شمس، تدقيق العلامة الشيخ بكر بن عبد الله بو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، جدة، (د. ط)، (د. ت).

١٣. طوق الحمامة في الألفة والأُلاف، علي بن الحزم الأندلسي، مؤسسة هنداوي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠١٦.

١٤. مظاهر الحزن في الشعر العربي المعاصر الشعراء الرواد أنموذجاً، جدي فاطمة الزهراء، مجلة النصّ، الجزائر، المجلد ٩، العدد ٢، ٢٠٢٢.